تفسير سورة الطور

وهى مكية

عن جُبَير بن مطعم، قال: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ـ أو: قراءة ـ منه. أخرجاه[1]، وروى البخارى عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى، فقال: «طُوفى من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذى يكون فيه أشجار، مثل الذى كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل. ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء ـ بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رفع بى إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم»[3] يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه بانى الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذى فى السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم. وقال ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ قال سفيان الثورى، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سِمَاك، عن خالد ابن عَرْعَرَة، عن على: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعنى: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وابن جُرَيْج، وابن

---

(١) البخارى (٤٨٥٤) ومسلم (٤٦٣/١٧٤). وسيأتى عند الآية (٣٦) من هذه السورة مطولا.

(٢) البخارى (٤٨٥٣). (٣) البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (٢٥٩/١٦٢).

زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعنى: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذى تحت العرش، الذى ينزل الله منه المطر الذى يحيى به الأجساد فى قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف فى معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] أى: أضرمت فتصير نارا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب عن على بن أبى طالب، ورُوى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم. وقال العلاء بن بدر: إنما سمى البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. وعن سعيد بن جُبير: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعنى: المرسل. وقال قتادة: ﴿الْمَسْجُورِ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء. وقيل: المراد به: الفارغ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ ؛ خرجت أمة تستقى فرجعت فقالت: «إن الحوض مسجور»، تعنى: فارغا. وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدى وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: لواقع بالكافرين، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. وروى الإمام أبو عبيد فى «فضائل القرآن» عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾، فربا لها ربوة، أعيد منها عشرين يوما (١).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكا. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دورا. وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله، وموج بعضها فى بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك فى استدارة. ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أى: تذهب فتصير هباء منبثا، وتنسف نسفا، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابه لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل، ويتخذون دينهم هزوا ولعبا، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أى: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ وقال مجاهد، والشعبى، والسدى، وغيرهم: يدفعون فيها دفعا ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: تقول لهم الزبانية ذلك تقريعا وتوبيخا، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْهَا﴾ أى: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: ولا يظلم الله أحدا، بل يجازى كلا بعمله.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد ص ٦٤ .

العذاب والنكال، ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التى فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أى: هذا بذاك، تفضلا منه وإحسانا.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن عباس: السرر فى الحجال. ومعنى ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]. ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسانا من الحور العين. وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ : أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ۝ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝﴾ ربع

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يُلحقهم بآبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته، للتساوى بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ (١) وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. وهكذا يقول الشعبى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وقتادة. وهو اختيار ابن جرير. وقد روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن على قال: سألتُ خديجة النبى ﷺ عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما فى النار». فلما رأى الكراهة فى وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: يا رسول الله، فولدى منك. قال: «فى الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة، وإن المشركين وأولادهم فى النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الآية (٢).

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة

(١) « ذرياتهم » بالجمع : قراءة ثابتة أيضا . وانظر تخريج القراءتين فى تعليق الشيخ شاكر على الحديث رقم (١١٣١) من المسند .

(٢) المسند (١١٣١) وقال الشيخ شاكر : « إسناده حسن » والحديث من زيادات عبد الله ابن الإمام أحمد . وانظر تخريجه مفصلا هناك ، وكذا توجيه القراءتين « ذرياتهم » و « ذريتهم » . وقد أشار أيضا إلى ذلك عند تفسير الآية (١٦١) من سورة الأنعام .

فيقول: يا رب، أنى لى هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك» (١) . إسناده صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (٢).

وقوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ : لما أخبر عن مقام الفضل ، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، بل ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى: مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر:٣٨ ـ ٤١] . وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ اى: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ اى: يتعاطون فيها كأسا، أى: من الخمر. قاله الضحاك. ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ اى: لا يتكلمون عنها بكلام لاغ، أى: هَذَيان، ولا إثم، أى: فُحْش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأثيم: الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون. وقال قتادة: كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان. فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها ـ كما تقدم ـ صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذَيانا وفُحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾: إخبار عن خَدَمهم وحَشَمهم فى الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون فى حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]. وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ اى: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم فى الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى: قد كنا فى الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أى: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى: نتضرع إليه، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى

(١) المسند (٢/ ٥٠٩) وابن ماجه (٣٦٦) وفى الزوائد : « إسناده صحيح رجاله ثقات » .
(٢) مسلم (١٦٣١/١٤) .

عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أى: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذى يأتيه الرِّئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾: وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرا عليهم فى قولهم فى الرسول ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أى: قوارع الدهر. والمنون: الموت، يقولون: نتنظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أى: انتظروا فإنى منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا﴾ أى: عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فيك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أى: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن، قال الله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: كفرهم هو الذى يحملهم على هذه المقالة﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أى: إن كانوا صادقين فى قولهم: «تقوّله وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾

هذا المقام فى إثبات الربوبية وتوحيد الالوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أى: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أى: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا. روى البخارى عن جبير بن مطعم، قال: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ. أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبى أن يطير. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١). وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبى ﷺ بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ أى: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا

(١) مضى فى مقدمة هذه السورة مختصرا، وخرج هناك.

إنكار عليهم فى شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك، ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ أى: أهم يتصرفون فى الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ المحاسبون للخلائق؟ ليس الأمر كذلك، بل الله، عز وجل، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾؟ أى: مرقاة إلى الملأ الأعلى ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: فليأت الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أى: ليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شىء، ولا لهم دليل.

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثا، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أى: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أى: لست تسألهم على ذلك شيئا، ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أى: فهم من أدنى شىء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟ وهذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أى: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أى: متراكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أى: دعهم ـ يا محمد ـ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أى: لا ينفعهم كيدهم ولامكرهم الذى استعملوه فى الدنيا، لا يُجدى عنهم يوم القيامة شيئا، ﴿ولا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أى: قبل ذلك فى الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١] ، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: نعذبهم فى الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت

كلاءتنا، والله يعصمك من الناس﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أى إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وروى مسلم فى صحيحه، عن عمر : أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة (١). ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد وغيره، عن النبى ﷺ أنه كان يقول ذلك(٢). وقال أبو الجوزاء، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أى: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لى ـ أو قال: ثم دعا ـ استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته». وأخرجه البخارى فى صحيحه، وأهل السنن(٣). وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلس. وقال أبو الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » . رواه الترمذى ـ وهذا لفظه ـ والنسائى فى اليوم والليلة، وقال الترمذى: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال: إسناد على شرط مسلم (٤). وروى أبو داود عن عبد الله ابن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جُبَير بن مطعم(٥). ورواه أبو بكر الإسماعيلى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبى ﷺ .وقد أفردت لذلك جزءا على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة فى الليل، كما قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]. وقوله: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أى: عند جنوحها للغيبوبة. وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر (٦). وفى لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » (٧) .

---

(١) مسلم (٣٩٩/٥٢) .
(٢) المسند (٣/ ٥٠) وأبو داود (٧٧٥) والترمذى (٢٤٢) وصححه الألبانى .
(٣) المسند (٥/ ٣١٣) والبخارى (١١٥٤) وأبو داود (٥٦٠) والترمذى (٣٤١٤) .
(٤) الترمذى (٣٤٣٣) والنسائى (١٠٢٣٠) والحاكم(١/ ٥٣٦) .
(٥) أبو داود (٤٨٥٧) والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٧) .
(٦) البخارى (١١٦٩) ومسلم (٧٢٤/ ٩٤) (٧) مسلم (٧٢٥/ ٩٦) .